

الإعلان لأدب العرب - في جملة الفاظها وتراكيبها ، ومعانيها ، ومدلولاتها ، فكانت منها كالجبلية (Protoplasm) في خلايا الاجسام العضوية من نبات وحيوان .

هذه ثانية . واستطيع ان اقول في جزم ووثوق انها القانون الحي الذي يحكم هذه اللغة العظيمة ، ويعمل في ضميرها دائما ، ويجدد في سرايينها وعروقها دمها الحار ما اختلف عليها الجديدان ، وما التزم أهلها قوانين الحياة والبقاء وادركوا مدى ارتباط حياتهم بحياة لغتهم . وهو قانون كما قلت قد أبدعه روح الامة ، ومنه اشتق ، ومن معنياته - وهي باب من البحث يستغرق الاعمار ويستنفذها قبل أن تبلغ تمثله او تلم به - هذا الادب الحي ما تجدد على تقليب الشمس طلوعا ومغيبا ، وهذه العلوم اللسانية وغيرها من علوم اسلامية واخرى دخيلة صيغت بهذه اللغة ، مما تعاونت الامم التي دانت بالاسلام على مشاركة العرب مشاركة صادقة اصيلة في انتاجه وابداعه على امتداد الوطن الاسلامي الكبير ، وفي مختلف الازمنة ، وتمثلت فيه عبقرياتها في اروع الصور .

ومن فعل هذا القانون في حياة اللغة العربية وامتدادها الى ما وراء وطنها الاول . . انها قد اصبحت على وجه الزمان مناط احترام الامم التي دانت بالاسلام ، لانها لسان الدين ، فتيبها اعظم تبين لشيء عرف في التاريخ - وهي امم ذوات لغات واديان وعقائد شتى - منذ احسن العرب لقاءهم ايام تحملوا وحي السماء الى الابيض والاحمر والاسود على اديم المعمورة ، من غير تمييز عنصري من هذا التمييز الذي تمارسه السياسة الامريكية في هذا العصر ، عصر اللذة والفضاء ، وبلغفهم رسالته فاحسنوا التبليغ ، وهدوهم بمثلها ، وربما كان هؤلاء يحسون في اعماقهم هذه المثل مبهمة ، فلا يكادون يتصورونها ، او يطلبون التعبير عنها فلا يجدونه ، فعبرت لهم عنها هذه اللغة العربية تعبيراً وجدوا فيه زاد الارواح ، وري الاكباد ، وغذاء العقول ، واحسوا اعماق الاحساس انهم اعطوا منها جزيلا جليلا ، فشففوا به حبا ، وتعلقوا باللقمة التي اقلت اليهم امانته ، فاطرحوا اديانهم وعقائدهم لدين الله ، وتركوا لغاتهم (او كادوا) للغة العرب ، ووجدوا لها في مذاقهم حلوة ، وفي اسماعهم جرسا ، لا عهد لهم بمثلها في لغاتهم ، فاقبلوا عليها اقبالا منقطع النظر ، وقد اشتهر فيه كيف انجذب شباب اسبانيا اليها ، فتعلقوا بها تعلق الحب بل الهيام ، حتى رفع الاباء الذين لم ترتفع عن بصائرهم الفشوات عقائرهم

بالشكوى من هجر ابنائهم لغتهم اليها ، وكيف سارعت أهم في الشرق والغرب لتداولها ، وكيف تمثلها أصحاب المبقيات خاصة فملكوا من ناصيتها ما كان يمتلكه أهلها الاصلاء منها ، وتناغوا بها ، وابدعوا فيها روائع الآثار في الشعر والنثر والفلسفة والحكمة ، وفي كل علم اصلوه وفن مارسوه . وقد عاش ما كتبه بلفة القرءان ، وسيميش الى ما شاء الله ، مصادر حية قوية تثوب الى الانتفاع بها الاجيال بعد الاجيال . ولقد اوحى كثرة هؤلاء العباقرة من الاعاجم في الاسلام الى ابن خلدون قوله المشهورة في « المقدمة » : « أكثر حملة العلم في الاسلام كانوا من الاعاجم » او كما قال ، ولم يزغ قلمه بها عن جادة الصواب ، وان خاله من غابت عنهم دلالتها جائرا ، ولست اتهم منهم مخاطبا بفهمه حين ادله على ما تشير اليه عبارته بحق من عظمة العرب والعربية ، ومن هذه العظمة انها تمتص العبقريات من كل امة تتصل بها وتتذوقها لتبسط ابداءها للغة العربية دون لغاتها !! وما انك هؤلاء العظماء الى جانب ابداعهم هذا لها على تراخي الاباء يتناغون بها دون لغاتهم ، وهو امر لا يعرف نظيره في تاريخ العالم ، ومن هذا التناغي عبارات عجيبة صدرت عنهم ، وركبت الينا اعناق الدهور ، تصف عظمة العربية في نفوسهم ، ولا تغفل تقديس العرب . ومن روائع ذلك قول امام العربية في عصره جار الله محمود الزمخشري التركي وهو يفتتح كتابه (المفصل في النحو) : « الله احمد على ان جعلني من علماء العربية ، وجبلي على الغضب للعرب والعصبية ، وابى لى ان انفرد عن صميم انصارهم وامتاز ، وانضوي الى لفيف الشعوبية وانجاز » .

ولست واجدا في كلام كلمة احر واحلى وازكى من كلمة الفيلسوف الرياضي المؤرخ العظيم احمد بن محمد البيروني، من اهل خوارزم ، وهو يتمطق بحلاوة العربية ويقول : « والله لان اهجى بالعربية احب الي من ان امدح بالفارسية » !

ذلك فعل هذا القانون الذي يحكم اللغة العربية، والادب العربي ، في حياتهما وانتشارهما . وقد دل عمله الدائب في باطنهما انه قد ادى وظائفه بقوة ويقظة في مختلف الاحوال : اداها كما ينبغي ان يكون اداء شيء حين كان السلطان السياسي الى العرب ، وكانوا القوامين على الحياة العامة في الوطن الاسلامي كله من مشرقه الى مغربه .

واداها كذلك حين تعرضت الاوطان الاسلامية للحركات الداخلية الهدامة ، وللغزو من شرق ومن

غرب ، فمضى باللغة العربية الى غايتها غير قاعد بها عن عمل في أدب أو علم أو فكر .

وأداها على هذا النحو وذلك حين انتهى السلطان الى غير العرب ، لمصور طويلة خلت ، امتدت من سقوط بغداد في يد المغول وزوال الدولة العباسية بذلك في سنة 656 هـ الى عهدنا هذا الذي ما برح الصراع مشتدا فيه بين الأمة العربية والخلف الاستعماري اليهودي في عنف بالغ الخطورة على امتداد اديم الوطن العربي ما بين المحيط الاطلنطي والخليج العربي .

اقول : أدى هذا القانون وظائفه خير ما يكون الاداء في هذه الحقبة الطويلة ، كما اداها في الحقب التي سبقت ، واحسب أن ادائه هذه الوظائف حين صار السلطان الى غير العرب أو حين تعرض للشر والغزو والعدوان ، لم يصب بمعجز ولم يخامرهُ فتور أو ضعف ، لان القوة الدافعة التي تعمل في باطنه لا تغالب ، ولا تنال منها المؤثرات أو تهزمها ، لانها تقبس آقباسها ودفنها من مصادر نفسية تتقد جدواتها ابدا ولا يخبو لها اوار ، وربما بدت لنا في هذه العصور - اذا لاحظنا الاعاصير التي تناوحت حولها من داخل ومن خارج فثبتت لها راسخة شامخة - اشد وقدا ، واعلى سنا وسناء مما كانت عليه في دهرها القديم ، وشأنها هذا هو شأن النار حين تنكس ، فيرتفع لها ، ويشد وقده وضرامه ، وما أكبر شبهها في هذا بما شبه به منقذ الامير الشاعر المجاهد قوة عزيمته ، وتأيبه ان يلين للايام التي تحاول ان تنال منه ، حين قال :

كم تفض الايام مني ، وتأبى
همتي ان تنال مني مناها
انا في كفها كجذوة نار
كلما نكست تعالي سناها

وكانه اياها عنى بهذا ، ولم يعن نفسه ، لان القوة التي كان يستشعرها في نفسه ويفالب بها عوادي البغاة على الوطن العربي ايان حروب المئين بين الشرق والغرب هي قبس من روح الامة ، وروح الامة هذا هو روح ادبها الحي الخالد ، افرغته فيه فراغا ، وامتزجت به ، فأصبحت متلازمين بالضرورة ، لا ينفصم شيء منهما عن شيء .

والصورة التي اريد ابرازها لهذا القانون ، تتوضح معانيها بتعريفها بالتمثيل لها ، فهي بدونها تبقى صورة غامضة مبهمه . . . غير ان هذا التمثيل يستغرق كتابا ضخما ، وموقفنا يستدعي الاقتضاب

والاستقطاب ، لو امكن ان تستقطب سبع مائة سنة في دقائق .

ومع هذا فانني مضطر ان اقول في هذا شيئا ، وسأقف عند هذه السبع مائة عام التي هي العصر الوسيط كله وقفة قصيرة لا معدى لي عنها .

وننظر الان كيف صورت اقلام المؤرخين ادبه الذي اجرت عليه هذا القانون الاوربي عند كتابة تاريخه ؟

الصورة السياسية العامة لهذا العصر والاحداث العظمى التي حدثت فيه وتناوشته من شرق وغرب ، كانت هي الاطار الذي وضع الادب العربي في داخله .

وهي صورة - كما نعلم جميعا - تتوثب فيها اشباح ذئاب بشرية يقال لها مغول وتتار ، انثالت على الوطن الاسلامي والعربي من اواسط آسيا شرهة نعمة تتحرق من جهل وخرق وغباء ظمأ الى الدم والتخريب والتدمير ، واشباح ذئاب بشرية اخرى يقال لهم الاوربيون ، تنفصد عروقهم عصبية ، وتتزى نفوسهم حقدا وطيشا ، بعضهم يغزون الوطن من اطرافه كما كان من الاسبان في الاندلس فيطاردون اهله ، ويقتلونهم ، ويفرضون على من استبقوا منهم الردة عن دينهم أو الجلاء ، وآخرون منهم يغزون قلبه ويقيمون على ثراه سوق القتال قرنا بعد قرن ، وهم ينشالون عليه موجة اثر موجة من البر ومن البحر ، ليجروا دماء اهليه على ثراه انهارا ، وليبيدوهم ويرثوا ديارهم .

سيطرت اخيلة هذه الصورة الرابعة على اذهان المؤرخين الذين ارخوا الادب العربي ، فذهلوا عن سواها ، ولم يكادوا يبصرون الا سوادها القاتم وظلال اشباحها على الحياة .

وكان اول شيء فعلوه ان سموا هذا العصر الوسيط كله - وفيه اجزاء مهمة اختلفت صورتها عن هذه الصورة - « العصر المظلم » . وهي تسمية احسبهم نقلوها الى تاريخنا عن المؤرخين الاوربيين الذين اطلقوا تعبير (Dark ages) على فترة من تاريخ اوريا بين انهيار الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي وبداية عهد الرينسانس (Renaissance) في القرن الخامس عشر . ولكن هذا العصر - في آماده الطويلة التي تخالفت احداثها واحوالها وصورها السياسية - لم يكن كله ظلما كما تخيلوه ، وتحدثوا عن دوله المتتابعة - وهي دول تركية في الغالب -

وهو الى ذلك قابيع في سرداب بارد رطب مظلم ،
لا يلتمع فيه من بارق الا مثل ما يكون في الفترات من
نار الحباحب تحت الحندس البهيم .

ذلك ما يرسمه هذا القانون الاوربي الذي ارتضاه
مؤرخونا المحدثون من صورة لادب هذا العصر وحياة
اللغة العربية فيه كما اتخيلها كلما اقرا ما كتبوه في
ايجازه او تفصيله .

فهل هو كذلك حقا وصدقا ؟

القانون النفسي الحي الذي يحكم اللغة العربية
ويقوم الادب العربي به كما اسلفت ، تنفي اجابته عن
هذا التساؤل صدق هذه الصورة القائمة على ادب
العصر الوسيط وحياة اللغة العربية فيه ، وتكاد
ترسم له صورة اخرى مغايرة لهذه الصورة في كثير
من قسامتها وأوصافها ، ولا اقول : في كل قسامتها
وأوصافها .

وهي تسق ، ويتها لها الاستقرار في نصابها
النم كلما تناولت هذه الاجابة التاريخ من مختلف
جوانبه ، وجرت وراءه تتقصى كليات حوادثه
وجزئياتها ، والتمست الرغبات في الطبائع والميول
فتدارستها ، وفاءت الى القوانين النفسية التي تعمل
عملها الدائب في روح الامة وعقلها ولفتها وادبها جميعا ،
فجعلتها المحور والاساس لكل ذلك .

وحسبي الان ، وقد طال بي نفس الكلام ، ان ادل
على هذا في هذا الموقف .

اما تفاصيل ملامح هذه الصورة التي ستتناولها
هذه الاجابة ، وهي تقتضينا متسما من الوقت لا نملكه
في هذه اللحظات ، فادعها الى وقت آخر ، واكل امر
ما قدمت الى العلماء النقاد .

حديثا مجملا متشابها او يكاد يكون متشابها ، ولم
يحاولوا ان يميزوا بين صفاتها ، ويتبينوا مواقف
الملوك والسلاطين من العرب والاسلام واللغة العربية
ومن العلوم الثقيلة والعقلية والدخيلة .

وعرضوا للادب في الوطن العربي ، دون الاوطان
الاسلامية التي لم تتخل عن الاسلام وعن لفته ، بل
خصوا بحديثهم اجزاء منه ، واغفلوا اجزاء اخرى
مهمة كانت مباءات له غنية كل الفنى بثرائها منه ،
وكانت النفوس فيها ربا من العربية .

فماذا نشأ عن هذا ، وما الاحكام التي انتهوا الى
استنتاجها ووسموا بها ادب هذا العصر ؟

نشأ عن هذا اخطاء جمة خطيرة ، من اوضحها
هذه الصفات المتشابهة المتماثلة التي اجرها عليه ،
ما عرفوه منه وما لم يعرفوه ، وهذا الطابع الباهت
الذي طبعوه به وهو يصف ركوده وركود اللغة ركود
الموت ، ويفغل الاشارة الى قوته ومصادر هذه القوة
اغفلا يكاد يكون تاما .

وجملة الصورة التي رسموها له اراها تمثل
صورة انسان خديج ذميم مشوه ، جامد النظرات ،
منظمس القسما ، متفضن الاسرة ، منكمش متقبض
كاحدب (نوتردام) او احدب (بفسداد) ، عنيت
الاحدب الذي ادى صورته الينا شاعر التصوير
الابتداعي ابو الحسن بن الرومي في بيتيه المشهورين :

نصرت اخادعه وطال قذاله

فكانه متربص ان يصفعا

وكانما صفعت قفاه مرة

واحسن ثانية لها فتجمعا

اللغة

والمجتمع الإنساني

للأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح
من علماء الأزهر - القاهرة -

واللغة فعله من لغوت اي تكلمت . واصلا لغة ككرة ، وقلة ، وثبة . كلها لاماتها واوات ، لقولهم كروت بالكرة ، وقلوت بالقللة ، ولان ثبة كانها من مقلوب تاب يشوب .

وقالوا فيها : لغات ، ولغون ، ككرات وكرون ، وقيل منها لغني يلغى اذا هدى قال :

ورب أسراب حجيج كظم

عن اللغا ورفث التكلم

وكذلك اللغو قال الله سبحانه وتعالى : « واذا مروا باللغو مروا كراما » اي بالباطل ، وفي الحديث « من قال في الجمعة صه فقد لغا » اي تكلم (2)

وقد يصعب على الباحث ، معرفة متى وأين وكيف بدأت اللغة . الا أننا لا نعدو الصواب ، اذا قلنا : انها بدأت عندما تكونت اول جماعة انسانية في هذا الوجود ، ولا نعدو الصواب أيضا ، اذا قلنا : ان الجماعة الانسانية الاولى - ايا كان طابعها - عندما تكونت صحبت معها مشاكلها الخاصة ، الناتجة عن علاقات الافراد بعضهم ببعض ، والناتجة عن علاقة الانسان بالبيئة والطبيعة . وفي سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة في نوعها ، تولد النشاط الانساني في استخدام الصوت ، لتكوين الفاظ لغوية بدائية الطابع ، والانصات لتلك الاصوات ، بما يتبعه من مسلك ذهني لفهم مدلولها اللفظي عن طريق الاذن . تجسد هذا النشاط الانساني

اللغة ظاهرة اجتماعية اقتضتها حياة بنى الإنسان ، لان الله خلق هذا النوع اضعف قوة ، من كثير من انواع الحيوانات الاخرى ، التي تعيش معه على الارض ، ولكن الله عوض الانسان عن قوة الجسم والسلاح ، قوة العقل ، ومنحه الاستعداد للكلام والتفاهم . فدعا بعض افراد الانسان بعضا للتفاهم والتعاون على اتقاء عادية الحيوان ، وعلى جلب المنافع ، وتحصيل المرافق ، واضطره ذلك الى سكنى المدن ، وانشاء المجتمعات ، ولذلك قال فلاسفة الاجتماع « الانسان مدني بطبعه » أي انه مضطر الى سكنى المدن ، ليتم فيها تعاونه وقدرته على استغلال ما اعد له في هذه الدنيا من مقومات حياته .

وكانت اللغة هي الاداة التي تكشف لبعض الافراد عما في نفوس الآخرين . وقد كان التفاهم الانساني اول الامر ، بالاشارات التي لايزال بعضها في لغة الجماعات البدائية ، والتي تظهر في الطفل قبل ان يتعلم الكلام ، ثم حصل التفاهم بالاصوات التي تألفت منها الكلمات في اللغات المختلفة (1)

فاللغات اصلا اصوات ، وليست كلمات ، فان الكلمة صوت يرمز الى معنى ، وكتابة الكلمة رسم يرمز الى هذا الصوت ، والصوت هو الاصل .

والصوت يصنعه الهواء ، يخرج من رئة الانسان ، وتقوم الحنجرة ، ويقوم اللسان ، ويقوم الفم ، وحتى الانف ، باعطائه شكلا خاصا ، هو الكلمة المسموعة .

المتميز عن كائنات الطبيعة الأخرى ، في صحبات موسيقية ، تومي بمعان سحرية ، تختلف في دلالتها باختلاف موسيقاها .

بذلك تكون العنصر الأساسي للبيئة الثقافية الخاصة بالإنسان وحده ، فاللغة بظهورها - كمرحلة عليا في مجريات التطور - خارجة خروجاً تلقائياً من صور سبقتها للنشاط الحيواني كان رد فعلها الحتمي ، هو تحويل تلك الصور والضروب التي كان السلوك الجماعي يجيء على غرارها ، يضيف بعداً جديداً إلى أبعاد الخبرة الإنسانية ، ما نطلق عليه إنسانية الوجود ، فالتمبير الرمزي عن الأشياء يحولها من أشياء قائمة بذاتها ، منفصلة عن الوجود الإنساني ، إلى جزء من هذا الوجود ، فمثلاً تسمية الساق الخشبية المنبتقة من الأرض والمنتهمية بأفروع ووريقات خضراء بلفظ « شجرة » هو بمثابة إذابتها في الوجود الإنساني تقع تحت سيطرته وتفقد معنى وجودها بدونه ، وعلى هذا تسمية الشيء - أي إطلاق لفظ لغوي عليه - هو الخطوة الأولى للسيطرة على وجوده ومزجه بالوجود الإنساني بعد المعرفة السابقة له كشيء منفصل عن الوجود ، والقوة في التعبير الرمزي عن الشيء بلفظ لغوي ، تكمن في انبثاق مواضيع من هذا الرمز ، لا تمت للشيء الرموز به أصلاً بصله مباشرة ، وإن كان هذا لا يتم إلا بعد عدة مراحل من التطور اللغوي ، ومن هنا يتبين الفرق الأساسي بين التعبير الرمزي عن الأشياء والأفعال برسمها والتعبير الحركي - الرقص - الذي من الصعب أن يتولد عنه شيء آخر ، بخلاف اللفظ اللغوي الذي يملك تلك الإمكانية .

وليست على هذا الأساس ، البيئة التي يحيا فيها الإنسان ، يعمل ويبحث مادية فقط . بل ثقافية كذلك ، فأفعال الإنسان وكيفية أدائه لها ، لا تتوقف على التكوين العضوي لجسده فقط ، بل البيئة والإنسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافي المنبث في التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والأهداف والمعتقدات التي تحملها الألفاظ اللغوية ، في طيها وتوحي بها .

والمشكلات التي تبعث على التقصي والبحث إنما تنشأ من علاقات الناس بعضهم ببعض ، ولا تقتصر الأعضاء التي تختص بهذه العلاقات ، على العين والأذن واللسان ، بل من أدواتها كذلك ، تلك المعاني المتطورة على مر الحياة ، مضافاً إليها وسائل التكوين الثقافي .

تحتل اللغة - أذن - في مركب العناصر التي يتألف منها المحيط الثقافي للإنسان ، مكاناً ذا دلالة

خاصة ، وهي تؤدي وظيفة ذات دلالة خاصة أيضاً فهي في حد ذاتها نظام ثقافي ، وهي :

1 - الأداة الرئيسية التي تنتقل بها سائر تلك النظم الأخرى والعادات المكتسبة .

ب - والألفاظ التي تنغفل خلال الصور ومضموناتها في آن واحد مما ، أعني الأنظمة الثقافية الأخرى ومضموناتها .

ج - وتمتيز بتركيب خاص بها له قابلية التجرد باعتبار اللفظة « صورة » من الصور ، ولهذا التركيب - إذا ما تجرد في صورته - تأثير حاسم من الوجهة التاريخية .

واللغة التي جاءت على هذا الوضع ، هي اللغة بأوسع ما أريد لها من معنى ، فاللغة بهذا المعنى المتوسع ، هي الوسيلة التي تتقمصها الثقافة فتبقى ، وعن طريقها تنتقل ، وهي ذلك التدوين الذي يديم بقاء الحوادث ، ويجعلها في متناول الناس عامة لبحثها من جديد ، ومن جهة أخرى ، فإن الأفكار أو المعاني لا وجود لها إلا في رموز يستحيل فهمها دون الرجوع إليها مرة ثانية ، وبذلك تشكل تلك الرموز ، نوعاً من البقاء الضروري لوجود الأشياء المرموز إليها ، بعد أن كانت بداية استخدامها وسيلة فقط للتعبير الرمزي عنها (3) .

ومن هذا يتبين أن علاقات العالم الداخلي النفسي والعالم الخارجي ، تتجسم في التعابير المختلفة ، توجد بوجودها ، وتندم باندماجها ، أنها شرط وعلّة لها ، وبما أن الموضوع والذات ، أي المفعول والفاعل ، يلتقيان في الشعور الفردي ليتحققا ، كان لزاماً على الدراسات النفسية أن تبدأ بالتعرف على حقيقة التعبير وأصنافه .

فاللغة فن تقني (لأن لها نماذج وقواعد متفقاً عليها) ولكن حقيقتها تندمج في حقيقة تاريخية ، التاريخ الفكري والنفسي والصناعي والجغرافي للامة أو للامم المتكلمة بهذه اللغة ، ونقصد هنا بالتاريخ الماضي طبعاً ، ولكنه ماض يسترسل من الحاضر مع التأكيد بأن الحاضر لا ينحصر في الحال ، بل هو ما يعبر عنه النحويون « بالمضارع » أي الحال والمستقبل ، لأن ما يقوم به الإنسان في الحاضر إنما هو إنجاز لما يريد أن يكون عليه ما بعد الحاضر ، فالمستقبل ليس مرادفاً للبعيد كما أن الحاضر ليس منحصرًا فيما قد حضر فحاضر ليس وصفاً لحالة ، بل اسم فاعل ، أي أنه الزمن الذي يقع فيه فعل فعلياً .

فالحاضر يختلف عن الماضي ، لان الماضي قد انتهى كحركة مباشرة ، ولم يبق الا في اشارة او نسي ذاكرة . ويخالف ايضا المستقبل لان المستقبل يصوب اتجاهه نحو الامام ويتمص الامال .

فالتكلم يغير اللفظة ولكنه يخضع لاسها ومصطلحاتها ، كي يفهم ، فالكلام اداة للفاهم ، لا غاية في ذاته . ان المتكلم يرمي من وراء الكلام ان يفهم المستمع انه يريد تواسلا .

لكن خلافا ، لما يمكن ان نظنه ان الانسان الاول ، لم يتكلم ليعبر عن مفاهيم وافكار ، ولم يتكلم لانه كان له شيء يجب ان يقال ، بل العكس ، لقد فهم وفكر وافهم لانه تحدث ، حيث ان ما راج في خاطره قبل ان يتكلم لم يكن مكيفا في شكل اولي يرمي الى قصد ، واني له ان يقصد الافهام قبل ان يحصل عنده فهم هو نفسه ؟

ان التفكير واللفظة وجهان لواقع واحد . ان الجد الاول للانسانية لم يعبر عما فكر فيه لانه كان يفكر ، بل فكر لانه تكلم ، وهو لم يتحدث الا بعد ان انتهى من الحركة ، فللافعال - اي ما يقابل الاسماء - الاسبقية والمكان الاول ، والافعال آخر ما يضيع من الذاكرة . ان اللعب وهو عمل جماعي من اول الحركات التي يقوم بها الطفل ، فكل لعب في الحقيقة ، ملاعبة ، واداة اللعب بالنسبة للصبي غالبا ما تكون هو من يلعب معه من اقارانه ، او من الكبار ، فالاتصال الاول بين الصبي وعالم الاحياء ، هو الثدي ، وعند النظام نلهيه بثدي لا لبن له ، او بأشياء جامدة تشبه الثدي ، فاللعب عالم مصطنع بين الواقع واللاواقع ، اي حركات وامزة يتعدى الرمز عند الطفل دور الوساطة ويصبح غاية في ذاته ، نعني ان الرمز يتركز في الشعور كأنه هو الواقع ، ويصير الواقع شيئا اجنبيا (4) .

وان اول اداة للتعبير اخترعها الانسان ، هي الالة مثل الحجرة والعصا وهذه الادوات ان هي الا افعال مجسمة ، فالمعول شيء مشترك بين الانسان والحيوان .

يقلع (الشامبانزي) غصنا من الشجرة ، ليستعمله كما يستعمل الانسان العصا . لكن الفرق هنا ، هو ان القرود يستعمل آلتها في الحالة الحاضرة ، في حين ان الانسان يخلق بينه وبين الالة صلات يملكها فيقول : هي لي ، هي لك ، هي لنا ، فيذخرها ثم ينقحها ويطورها ، ومن هنا يكسبها معاني جديدة ، وكردد فعل لذلك ، تكسبه هي بدورها كلمات جديدة (افعالا

واسماء) فهناك اذن : (ديالكينيك) للتطور الانساني في علاقاته بالادوات ، يؤثر بها ثم فيها ، وهي بدورها تؤثر فيه . فالانسان يتطور بقدر ما تتطور ادوات العمل .

فالانسان يمتاز عن الحيوان في علاقاته بالالات في كونه يستعملها ، وقد استعملها امس ، ويستعملها الآن ، ويحتفظ بها لما بعد .

وبمجرد ما اصبحت الالة مصاحبة للانسان اي متصلة بالتاريخ تكونت حولها عادات جماعية : نعني اعرفا تقنية تتوارثها الاجيال (صنع الالة وكيفية استعمالها واصلاحها) والاستعمال مجموعة عمليات تنشأ عنها نتائج يرجوها العامل لفائدة مباشرة او للمبادلة ، اي الالة اول واسطة بين الانسان والعالم ، بين الانسان والمجتمع . فاللغة لا تنتعش الا في البيئات الغنية بالالات ، بالاشياء المصنوعة والمكتشفة ، لان كل لغة انما هي ادوات حضارية ، ان الجد الاول للانسان قد استعمل العصا في الصيد ، وقلد صوت الحيوان ، ثم تلفظ بمسميات للعصا وللصيد ، وللصوت وللطير ، فالحياة تدور حول اشباع الحاجيات ، وهذا الاشباع يدفع الى العمل ، والعمل يدفع الى اكتشاف الات الى صنعها ثم ترقيتها .

هكذا تكثر الاتصالات المجتمعية حول اعمال مشتركة ، فتتجلى مختلف التعايير من علامات واشارات ولفات ورموز .

من هذا التحليل نصل الى اصل المعرفة ، واصل الاحداث التاريخية ، واصل المجتمع الانساني ، وبالتالي هنا يبدأ التفكير الفلسفي .

ان الفلسفة بطبيعتها وظيفتها ، تشتغل بمعرفة الانسان والعالم وعلاقاتها ، فهي تبحث فيهما ، والبحث حديث ، والحديث نقاش كلامي .

والانسان هو الحيوان الذي يتكلم ، اي يصنع العالم بالالفاظ ، فتصبح كل لفظة اما مفتاحا لفهم ، او اداة مواصلة واتجاه ، واما تحديدا لسلوك فردي ، او جماعي ، فالكلمات كالاوراق النقدية والاسلحة او الخاتم السحري في يد الانسان ، يكفيه ان ينطق ليحدث شيئا في شعوره ، ورد فعل في شعور الآخرين ، ومن هذا التجاوب الشعوري ، ينتج صدى يحرك الطبيعة الخارجية ، فالكلام خلاق ، ان الكلمة الواحدة تحدث احيانا فسادا ، وحيانا اصلاحا . واذا لم يتسبب عنها شيء محسوس عند المتكلم ، ربما حصل ذلك عند